

الدرس العشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .
أما بعد ..

الحديث الثالث والعشرون

عن أبي مالك الحارث بن عاصم الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الطهور
شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء
والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل
الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها " رواه مسلم

الشرح..

هذا الحديث هو من الأحاديث العظيمة الجامعة ؛ بل هو من أجمع الأحاديث في باب
فضائل الأعمال ؛ حيث جمع فيه النبي صلى الله عليه وسلم جملة طيبة مباركة من أعمال الإسلام ، وبين
فضل كل ، وهو حديث وجيز وجامع لجملة من الأعمال مع ذكر فضائلها ، وما يكرم الله
تبارك وتعالى به أهلها ؛ فذكر عليه الصلاة والسلام الطهور ، وذكر الله جل وعلا الحمد والتسبيح ، وذكر
الصلاة والصدقة والصبر والعناية بكتاب الله جل وعلا ، ثم ختم ذلك ببيان أهمية الأعمال
والعناية بها جملة ، وأن الواجب على العبد أن يحفظ حياته بالأعمال الصالحة والطاعات
الزاكية المقربة إليه سبحانه وتعالى .

وهو يتكون من جمل عديدة :

الأولى : قوله عليه الصلاة والسلام " الطهور شطر الإيمان " : ولأهل العلم في معنى قوله الطهور قولان :
الأول : المراد بالطهور أي من الذنوب وعلى رأسها الشرك بالله ؛ ومنه قوله تعالى { وثيابك
فطهر } أي طهر نفسك من الشرك بالله عز وجل ومن الذنوب { والرجز فاهجر } ، { إن الله

يجب التواين ويجب المتطهرين { فتأتي الطهارة والتطهر ويراد بذلك الطهارة من الشرك ، والتنزه بالبعد عنه ، وعدم الوقوع فيه .

والقول الثاني (وهو الأقرب) : المراد بالطهور هو الوضوء الذي لا تصح الصلاة إلا به ؛ ولهذا جاء في بعض ألفاظ الحديث قوله " الوضوء شرط الإيمان " ، وجاء في بعضها قوله " إسباغ الوضوء شرط الإيمان " وهذا واضح أن قول النبي صلى الله عليه وسلم هنا المراد به الوضوء الذي لا تصح الصلاة إلا به ، فهو شرط من شروط قبولها .

والصلاة لا تصح إلا بالطهارة ، وهي رفع الحدث ؛ والعبادة - عموماً - لا تصح أيضاً إلا بالطهارة ؛ التي هي الطهارة من الشرك لأن الشرك إذا خالط العمل لم تُقبل العبادة ؛ فشأن الإخلاص في العبادة كشأن الطهارة في الصلاة ، كما أن الصلاة لا تقبل إلا بالطهارة ؛ فالعبادة لا تُقبل إلا بالطهارة من الشرك بالله جل وعلا ؛ وذلك بأن تكون العبادة خالصة لله جل وعلا لا يبتغى بها إلا الله .

عرفنا أن القول الأقرب في قوله " الطهور " أن المراد الوضوء وإسباغ الوضوء ؛ فإسباغ الوضوء والعناية به شرط الإيمان

وعلى المعنى الأول " الطهور شرط الإيمان " - أي الطهارة من الشرك والذنوب - ؛ فالمعنى ظاهر لأن الإيمان قسمان : فعل مأمور وترك محذور ؛ فإذا قيل " الطهور شرط الإيمان " أي ترك المحظورات والبعد عن الذنوب والتخلي عن الأنجاس وأحوال الذنوب ؛ فهذا شرط الإيمان - نصفه - لأن شرط الشيء نصفه .

وعلى المعنى الثاني وهو أن الطهور شرط الإيمان أي الوضوء قيل في ذلك أقوال :
منها أن المراد بالإيمان هنا الصلاة { وما كان الله ليضيع إيمانكم } أي صلاتكم ، والوضوء شرط الصلاة ، ومن صلى بلا وضوء لا صلاة له .

وقيل في معنى ذلك أقوال عديدة ساقها الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى في كتابه الحافل جامع العلوم والحكم .

وعلى كل فإن قوله " الطهور شرط الإيمان " فيه بيان واضح لفضيلة الوضوء في الإيمان ومكانته العلية من الدين وأنه عملٌ جليلٌ ، وطاعةٌ زكيةٌ يحبها الله سبحانه وتعالى من عباده ؛ فالله جل وعلا يحب التواين ويجب المتطهرين .

قال " والحمد لله تملأ الميزان " : وهذا فيه فضل الحمد .

والحمد هو الثناء على الله جل وعلا مع حبه جل وعز . وهو يُحمد على أسمائه الحسنى وصفاته العلىا ، ويحمد تبارك وتعالى على نعمه التي لا تُعد ولا تستحصى ، والحمد كله لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً .

وهو أحد كلمات أربع هي أحب الكلام إلى الله سبحانه وتعالى ، كما قال صلى الله عليه وسلم " أحب الكلام إلى الله سبحانه الله والحمد لله و لا إله إلا الله والله أكبر " .

وهنا يخبر ^{عليه الصلاة والسلام} أن الحمد تملأ الميزان ؛ وهذا فيه إثبات الميزان ، وهو ميزان حقيقي ينصب يوم القيامة { ونضع الموازين القسط ليوم القيامة } وقوله " الحمد تملأ الميزان " : هذا يدل على المكانة العظيمة التي تكون للحمد في الميزان الذي يُنصب يوم القيامة . " الحمد تملأ الميزان " هذا يدل على ثقل الحمد في الوزن وكبر شأنه في الميزان ؛ كما جاء في الحديث الآخر قال ^{عليه الصلاة والسلام} " كلمتان خفيفتان على اللسان حبيبتان إلى الرحمن ثقيلتان في الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم " ففيه ثقل هذه الكلمة في الميزان .

وهذا فيه الحث على الإكثار من الحمد ، وأن يكون العبد دائماً حامداً لله تبارك وتعالى ليكون يوم القيامة من أهل الحمد ومن تثقل موازينهم بكثرة حمدهم لله جل وعلا . " و الحمد لله تملأ الميزان " والميزان المراد به ميزان حقيقي ينصب يوم القيامة ، له كفتان ؛ كفةٌ توضع فيها الحسنات وكفةٌ توضع فيها السيئات { فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون } وميزان يوم القيامة بمثاقيل الذر { فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره }

وقد جاء في حديث عبد الله بن عمر بن العاص أن النبي ^{صلى الله عليه وسلم} قال " يصاح برجل من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة وينشر له تسعة وتسعون سجلاً ؛ كلُّ سجل منها مدٌّ البصر ؛ فيقال أتنكر من هذا شيء ؟ فيقول : لا يارب ؛ فيقال : ألك حسنة ؟ فيهاب الرجل ويقول : لا ؛ فيخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله ؛ فيقول الرجل : ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ - أي ماذا تفيد هذه البطاقة مع هذه السجلات ! - قال : فتوضع البطاقة في كفة - أي من كفتي الميزان والسجلات في كفة - ؛ قال : فنثقلت البطاقة وطاشت السجلات ولا يتحمل مع اسم الله شيء " ؛ وهذا فيه ثقل لا إله إلا الله في الميزان ، وليس الاعتبار بمجرد قولها في الظاهر ، فالمنافق يقولها

ظاهراً وهو في الدرك الأسفل من النار ، بل الاعتبار بقولها عن صدق وعلم وعمل بما تقتضيه هذه الكلمة ، وإذا قُدِّرَ أن الإنسان صدق مع الله في قول لا إله إلا الله ، وقبلها صادقاً ملتزماً ما تقتضيه وتستوجبه فكان بذلك من أهلها ؛ ثم لم يتمكن من العمل ولقي الله سبحانه وتعالى ولم يتمكن منه ؛ كان لكلمته هذا الشأن العظيم ؛ ولهذا نرى في بعض الأحاديث الأخرى أن أناساً قالوا لا إله إلا الله ، ومع ذلك دخلوا النار ؛ إما دخولها مخلدين لأنهم أهل نفاق لم يقولوها إلا بالسنتهم فقط ، وإما دخولها للتطهير وهم عصاة الموحدين ممن يدخل النار ليُطَهَّرَ، قال عليه الصلاة والسلام " قال الله تعالى أخرجوا من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان " .

فالشاهد أن هذه الكلمات الأربع ومن بينها كلمة الحمد ؛ كلمات عظيمة وجليلة القدر ، وحببية إلى الله سبحانه وتعالى وثقيلة في الوزن يوم القيامة ، وليست بشاقة على الإنسان لكن شأنها عند الله تبارك وتعالى عظيم ولا يزال العبد بخير في دنياه وأخراه مادام لسانه رطباً بذكر الله تسبيحاً وتحميداً وتهليلاً وتكبيراً .

قال " وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض " : وكثيراً ما يأتي الحمد والتسبيح مقترنين في نصوص كثيرة سواءً مقترنين في جملتين أو مقترنين في جملة واحدة - سبحان الله والحمد لله أو سبحان الله وبحمده - .

والحمد فيه إثبات الكمال لله في أسمائه وصفاته وتفضله على عباده بالنعيم والمنن .

والتسبيح فيه تنزيه الله وتقديسه عما لا يليق به سبحانه وتعالى .

فجمع الحمد والتسبيح ما ينبغي على العباد في باب التوحيد العلمي ؛ لأن التوحيد العلمي يقوم على التنزيه والإثبات ؛ تنزيه الله عما لا يليق به ، وإثبات الكمال له سبحانه وتعالى في أسمائه وصفاته وأفعاله ، وسبحان الله والحمد لله جمعنا ذلك -التنزيه وإثبات الكمال لله جل وعلا -

فهما كلمتان عظيمتان وثقيلتان في الوزن يوم القيامة .

قوله : " تملآن أو تملأ " : هذا شك من الراوي هل هي تملآن - أي كلمتان - أو تملأ - أي إحدى الكلمتين - والمراد هنا الحمد لأنه أعلى وأعظم .

قال " تملأ أو تملأ ما بين السماء والأرض " : هذا فيه فضيلة حمد الله وتسبيحه ، وأن من فضل هذه الكلمة ومكانتها وشأنها أنها تملأ ما بين السماء والأرض ؛ وهذا فيه تنبيه أن هذه الكلمة وإن كانت في اللفظ قليلة لكنها في حقيقة أمرها كبيرة جداً وعظيمة للغاية ، وأكثر الناس لا يدركون عظمة هذه الكلمات ومكانتها ؛ فهنا يبين عليه الصلاة والسلام كبر شأن هذه الكلمات وعظم مكانتها ومنزلتها .

قال " والصلاة نور " : أي لصاحبها ؛ وهذا فيه مكانة الصلاة والمحافظة عليها ، وأنها نورٌ لصاحبها تضيء له طريقه ويُبصر من خلالها الحق والهدى وتكون عوناً له وسائقاً للاستقامة على طاعة الله كما قال تعالى {واستعينوا بالصبر والصلاة} ؛ فالصلاة نور لصاحبها .
وقد جاء في المسند وغيره بسند ثابت أن الصلاة ذُكرت عند النبي عليه الصلاة والسلام يوماً فقال " من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نورٌ ولا نجاة ولا برهانٌ يوم القيامة وحُشر مع قارون وفرعون وهامان وأمّية بن خلف " أي مع صناديد الكفر وأعمدة الباطل .

والشاهد قوله " من حافظ عليها كانت له نوراً " ؛ فالصلاة نور لصاحبها المحافظ عليها
فقوله هنا " والصلاة نور " أي نورٌ لصاحبها المحافظ عليها - كما يوضح ذلك الحديث الآخر قال " من حافظ عليها كانت له نوراً " ثم قال " ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نورٌ " فالصلاة نور لصاحبها المحافظ عليها .

قال " الصلاة نور " .. ولم يقل نور في ماذا ؛ فماذا يفيد ؟ القاعدة عند أهل العلم أن الإطلاق يفيد التعميم ؛ فقوله " الصلاة نور " فيها تعميم ؛ فلم يقل الصلاة نورٌ في قلبه ، أو نورٌ في وجهه أو نورٌ له في طريقه أو نورٌ له في قبره إذا دُفن .. ؛ ليعم ذلك كله ؛ فالصلاة نورٌ له في قلبه ونور له في وجهه ونورٌ له في طريقه يُهدى إلى طريق الحق ويوق بإذن الله عز وجل من طريق الضلال وظلمات الباطل ، ونورٌ له في قبره ونور له يوم القيامة .

" الصلاة نور " هذا النور إنما يكون لأهلها المحافظين عليها ، وكما مر في الحديث " من حافظ عليها .. " ، وقوله تعالى {حافظوا على الصلوات و الصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين} .

فبالمحافظة على الصلاة والرعاية لها والعناية بها يتحقق للعبد هذا الموعود الكريم والفضل العظيم الذي ذكره النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث وفي غيره ؛

ففي الحديث الآخر قوله صلى الله عليه وسلم " كانت له نوراً وبرهاناً " : برهاناً أي دليلاً وشاهداً على صلاحه واستقامته وحسن إيمانه .

" ونجاة يوم القيامة " : من عذاب الله ؛ فالصلاة نجاة من عذاب الله وسخطه جل وعلا .
وترك الصلاة يفضي بالإنسان إلى النار قال تعالى { ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين } .

فقوله " والصلاة نور " : فيه بيان لفائدة الصلاة ومكانتها العظيمة ، وأن فائدة الصلاة فائدة عميمة تعود على العبد في دنياه وفي أخراه ؛ لأن معنى قوله " الصلاة نور " يدل على عموم الفضل المترتب على الصلاة وأنه يترتب عليها فضائل وآثار وثمار كثيرة في الدنيا والآخرة .
" والصدقة برهان " : البذل والنفقة في سبيل الله .

" برهان " : برهان على إيمان الشخص وسلامته من الشُّح {ومن يوق شُح نفسه فأولئك هم المفلحون} " الصدقة برهان" بذل الإنسان وإنفاقه في سبيل الله وسلامته من شُح النفس وبخلها ؛ هذا دليل وبرهان على الإيمان .

فقوله " الصدقة برهان " فيه فضيلة الصدقة وما يترتب عليها من الآثار الطيبة ، وأن فيها برهان على إيمان المتصدق ، وبرهان على سلامته من الشح والبخل ، وفيها دلالة على كرم نفسه وأنه من أهل السخاء والبذل ، ثم له ما أعده الله سبحانه وتعالى لعباده المنفقين المتصدقين .
" والصبر ضياء " : فيه فضيلة الصبر ومكانته العلية من الدين ؛ أي ضياء للإنسان في بصيرته وفي قلبه ، ودليل على قوة الإيمان في قلبه .

وقد دلت النصوص على أن الصبر المطلوب من العبد أنواعه ثلاثة :

- صبرٌ على طاعة الله .
- صبر عن معصية الله .
- صبر على أقدار الله المؤلمة .

{فاصبر لحكم ربك} أي حكمه الشرعي جل وعلا ؛ فعله للأوامر ، وتركه للنواهي .
وأيضاً حكمه القضائي بما يقدره على عبده من مصائب وأمور قد تكون مؤلمة له .
فالصبر ثلاث أنواع ..

الصبر على الطاعة ؛ بإلزام النفس بها ، وأطرها على فعلها والمحافظة عليها .
والصبر عن المعصية ؛ بمنع النفس عن فعلها ، وكفها عن مقارفة الذنوب وارتكاب الآثام .

والصبر على أقدار الله تبارك وتعالى المؤلمة عندما يُصاب بأمور في ماله أو في نفسه أو في ولده أو في غير ذلك ؛ فيجب عليه أن يتلقى ذلك بالصبر .

ومن كان من أهل الصبر فاز بإذن الله تبارك وتعالى بثواب الصابرين ، والصابرون يوقون أجورهم يوم القيامة بغير حساب ؛ قال { وبشر الصابرين } أطلق الأمر ؛ أي بكل خير وفضل ورفعة في الدنيا والآخرة .

وعندما نطالع قصة يوسف عليه السلام وما اجتمع له في تلك القصة العجيبة من أنواع الصبر الثلاثة : الصبر على أقدار الله ؛ فحصلت له أقدار عظيمة ومهيبة ومر بمصاعب وتلقى ذلك كله بالصبر .

وتعرض عليه السلام إلى جانب الفتنة ؛ تهيأت له امرأة العزيز وتزيّنت وغلّقت الأبواب ودعته إلى نفسها ؛ قال { معاذ الله } هذا صبر ، واشترك معها النسوة ؛ وامتنع من ذلك كله صابراً ، وصبر مطيعاً لله ، داعياً إلى دينه ، باذلاً جهداً في ذلك ؛ وكانت العاقبة له في الدنيا والآخرة ؛ وفي تمام الآيات قال لإخوته : { إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين } .

فالصبر عاقبته حميدة ، الصبر على طلب العلم ، الصبر على العبادة ، الصبر بالبعد عن المعاصي والآثام وكف الأذى وغض البصر وحفظ الفرج ، الصبر على الأقدار { وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون } وقد قال شيخ الإسلام أخذاً من هذه الآية : " بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين " .

والصبر عمل قلبي يترتب عليه حفظ للقلب من الجزع ، وحفظ للجوارح من المعاصي ، ومحافظة للجوارح بلزوم الطاعات والعبادات المقربة إلى الله جل وعلا .

قال " والقرآن حجة لك أو عليك " : وهذا فيه مكانة القرآن ، وأن من يقرأ هذا القرآن لا يخلو من إحدى حالتين : إما أن يرفعه الله بالقرآن أو يضعه الله " إن الله يرفع بهذا القرآن أقواماً ويضع آخرين " ، ويقول بعض السلف " ما جلس أحدٌ مع هذا القرآن إلا قام منه إما بزيادة أو نقصان " ، يقول الله تعالى { وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين ءامنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون } ؛ ولهذا القرآن إما أن يكون حجة للإنسان أو حجة عليه ؛ هو حجة للإنسان إذا قرأه وتدبر آياته وعمل به بهذا يكون حجة له ، وأما إذا كان حظه من القرآن مجرد القراءة دون عمل بالقرآن ، ودون تحقيق لأوامر القرآن وانتهاء عما ينهى عنه القرآن ؛ فهذا القرآن حجة عليه لا له ،

ماذا يفيد الإنسان إذا قرأ القرآن أو حفظ القرآن ؟ وهو يستغيث بغير الله ؟ ويطلب المدد من غير الله ؟ ويلتجأ في عبادته إلى غير الله ؟ وقد نقض بفعاله مقصود القرآن الأعظم وغايته الكبرى وهو توحيد الله ؟ {أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون ينزل الملكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاعبدون} فهذا مقصود القرآن ، وهذه الغاية من إنزال القرآن ؛ ولهذا القرآن إما حجة للإنسان أو عليه ؛ فإذا كان من أهل القرآن علماً وعملاً وتطبيقاً ؛ فهو حجة له ، وكان من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته ، وإلا فإن القرآن سيكون حجة عليه لا له ؛ مثل لو قرأ القرآن وحفظه للشهرة ؛ فهذا مقصوده ، أو ليقال فلان قارئ مجيد ، أو فلان صوته جميل ، وهم مدح الناس وثناؤهم عليه ؛ قد قال عليه الصلاة والسلام " أول من تسعر بهم النار يوم القيامة ثلاثة " وذكر منهم من قرأ القرآن ليقال قارئ ؛ فهذا حجة عليه ؛ فالقرآن فيه التوحيد وفيه الإخلاص وفيه ذم الرياء وفيه ذم إرادة الدنيا بالعمل وفيه الدعوة إلى العباداة والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى ؛ وهذا مقصود إنزال القرآن ؛ كما قال البصري رحمه الله تعالى قال " أنزل القرآن ليُعمل به فاتخذ الناس قراءته عملاً " ؛ فمقصود القرآن العمل .

ثم ختم الحديث بقوله " كلُّ الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها.." كل الاس تغدو ؛ كلهم ماشين ؛ الجميع في الصباح يقوم ويمضي لأعماله ومهامه وغاياته ومقاصده ، والغدو هو الذهاب في الصباح الباكر ، ومن الناس الآن من لا يعرف الغدو فبالغدو عنده وقت نوم وكسل فهو لا يغدو أصلاً ؛ في الصباح خامد على فراشه لا يغدو ؛ الطير تغدو والبهائم تغدو والناس يغدون وهو هامد على فراشه ؛ هذه حاله باستمرار إلا اذا كان للإنسان ظرف بيوم الأمر يهون

وهذا الغدو الذهاب الباكر ؛ الناس في على قسمين :

قسم "بائع نفسه" ؛ أي لله ، "ومعتقها" من عقابه وسخطه ومن النار .

وقسم آخر : "موبق" أي مهلكها .

الناس يمشون في الصباح الباكر إلى مصالح كثيرة ؛ والمؤمن أول وأعظم ما يغدو إليه في الصباح صلاة الفجر جماعة مع المسلمين في المساجد ، هذا أول ما يغدو إليه المسلم يتوضأ في بيته ويتطهر ويخرج إلى بيت من بيوت الله ليصلي صلاة الفجر .

وصلاة الفجر - على وجه الخصوص - جاء في فضلها وفضل المحافظة عليها أحاديث كثيرة جداً ، وجاء أيضاً أحاديث في الوعيد على من يفرط في هذه الصلاة ويهملها ..

فأعظم شيء يغدو إليه العبد وهو أول شيء يغدو له في يومه صلاة الفجر ، ومن افتتح يومه بالغدو إلى صلاة الفجر فهو يوم مبارك ، مصحوب بالتوفيق والسداد والحفظ كما قال بعض السلف : " يومك مثل جملك إذا أمسكت أوله تبعك آخره " ؛ فإذا غدا الإنسان من أول اليوم لأداء هذه الصلاة فقد حاز الفضائل ، واجتمعت له الخيرات وتوكل له في يومه ؛ ولهذا يحسن بالمسلم أن يقرأ في فضائل صلاة الفجر والصلوات عموماً ليكون من المحافظين عليها .

وصلاة الفجر مجتمع فيها جميع هذه الفضائل المذكورة في هذا الحديث ؛ لأنك :

- تتطهر ؛ والوضوء شطر الإيمان .
 - في صلاة الفجر حمدٌ وتسبيحٌ لله جل وعلا في سجودك وركوعك ورفعك من الركوع ، وفي استفتاحك ، وفي قراءتك فيها حمدٌ وتسبيحٌ .
 - وهي صلاة " والصلاة نور " .
 - " والصدقة برهان " إذا كان المراد بها بذل المال والنفقة في سبيل الله فهذه الخصلة ليست موجودة في صلاة الفجر ، وإذا كان المراد بالصدقة بمعناها الواسع - كلُّ تكبيرة صدقة وكلُّ تهليل صدقة - ؛ فهذا موجود في صلاة الفجر .
 - " والصبر ضياء " لأن صلاة الفجر فيها صبر على طاعة الله سبحانه وتعالى ، وإذا كان البرد شديد وصبر الإنسان على ما قد ينابه من تعب في وضوءه وفي مشيه للمسجد وفي نهوضه من فراشه ؛ فهذا كله صبر .
 - " والقرآن حجة لك أو عليك " والله جل وعلا يقول { وقرآن الفجر إنَّ قرآن الفجر كان مشهوداً } .
- فهذه الفضائل المذكورة في الحديث كلها مجتمعة في صلاة الفجر ؛ وبهذا تكون صلاة الفجر مع الجماعة تفتح لك باب الخير وباب الهداية وباب الإقبال على الفضائل .
- بخلاف المحروم والعياذ بالله الذي يبدأ يومه بالنوم عن صلاة الفجر فيُحرم من هذه الخيرات ، ويُحرم من هذه الفضائل ، ولا يُبارك له في يومه .

فهذه فائدة أرجو أن يكون فيها فائدة لنا جميعاً ، وأن تكون لنا سبباً للمحافظة على هذه الصلاة العظيمة - صلاة الفجر . وحث المفرطين والمضيعين على المحافظة على هذه الصلاة تعاوناً على البر والتقوى .

فمن الناس من يغدو في البر والإحسان والمصالح الدنيوية النافعة ، ومنهم من يغدو في الشر والفساد والإجرام ولهدم العقائد وتخريب الأديان وإضلال الناس ونشر البدع ؛ مثل من كان على نحلة فاسدة وعقيدة باطلة ؛ وكل يوم يذهب من الصباح الباكر يعلم الناس الباطل ويعلم الناس الضلال ، وينشر ذلك في الناس ؛ فهذا يهلك نفسه ويهلك غيره ؛ قال تعالى { ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء من يزرون } .

فالناس في الغدو قسمين :

قسم يغدو بائع نفسه إلى الله عز وجل ، ويشترى بذلك الجنة وثواب الله جل وعلا بالأعمال الصالحة والمصارعة للخيرات ومجاهدة النفس بالتقرب إلى سبحانه وتعالى بما يحبه و يرضاه .
والقسم الآخر : قسم يوبق نفسه : أي يهلكها ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في ذمه للكبائر : " اجتنبوا السبع الموبقات ، وسميت الكبائر موبقات لأنها تهلك صاحبها .
فلما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم الأعمال الصالحة ، وذكر فضائلها ؛ ختم الحديث بالإخبار عن أحوال الناس وأن هم على حالتين قسم يغدو في الصباح بائعاً نفسه إلى الله بالطهور ، بالصلاة ، بالتسبيح ، بالصدقة ، بالصبر .. إلى غير ذلك من الأعمال الصالحة .
وقسم آخر معرض عن ذلك كله ومقبل والعياذ بالله على الشر والفساد والإجرام ؛ فيهلك بذلك نفسه وتكون عاقبته الندم يوم القيامة .

قال الشيخ عبد المحسن :

[الأول : الطهور فُسر بترك الشرك والذنوب والمعاصي والتخلي عنها ، وفُسر بالوضوء للصلاة ، وفُسر الإيمان بالصلاة كما قال الله عز وجل { وما كان الله ليضيع إيمانكم } ؛ أي صلاتكم إلى بيت المقدس ، ويُرجح تفسير الطهور بالوضوء رواية الترمذي للحديث وفيه بدل الطهور الوضوء ، ورواية ابن ماجه بلفظ إسباغ الوضوء ، والشطر فُسر بالنصف ، وفُسر

بالجزء ، وُفسر بالجزء وإن لم يكن نصفاً ، وشرط الصلاة الوضوء كما جاء في الحديث "لا تقبل صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول" رواه مسلم .

والطهور بالضم اسم للفعل وهو التطهر ، وبالفتح اسم للماء الذي يُتطهر به ومثل ذلك لفظ الوضوء والسحور والوجور والسعوط] .

الشرح..

هذا بيان للجملة الأولى " الطهور شطر الإيمان " .. والطهور عند أهل العلم وعان منهم من قال الطهور .. أي الطهارة من الشرك والذنوب ومنهم من قال الطهور هو الوضوء وهو الأقرب لأن الحديث في بعض رواياته جاء مصرحاً بذلك.

والطهور بالضم - ضم الطاء - هو مباشرة العمل أي أداء العبد لهذا الفعل هو الطهارة ، وأما بالفتح - الطهور - فهو الماء الذي يُستعمل للطهارة .

[ثانياً : قوله "والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض" : الميزان هو ميزان الأعمال ، وهو يدل على فضل التسبيح والتحميد ، والتسبيح هو تنزيه الله عن كل نقص ، والتحميد وصفه بكل كمال، وقوله "تملآن أو تملأ" يحتمل أن يكون ملء ما بين السماوات والأرض للتسبيح والتحميد معاً أو لأحدهما ، ويحتمل أن ملء ما بين السماء والأرض لهما معاً ، والخبر جاء على الشك من الراوي هل هو بالثنائية أو بدونها] .

الشرح..

الحمدُ والتسبيحُ جُمع فيهما ما يقوم عليه التوحيد العلمي ؛ لأن التوحيد العلمي يقوم على الإثبات بلا تمثيل والتنزيه بلا تعطيل ، والإثبات يدل عليه الحمد ، والتنزيه يدل عليه التسبيح ، وإذا أتى المسلم بهاتين الكلمتين وحافظ عليهما وفهم ما تدلان عليه من إثبات الكمال وتنزيه الله جل وعلا عن النقائص ؛ ترتب على ذلك خير عظيم في تحقيق الاعتقاد وتحديد الإيمان وترسيخه في القلب ، وأيضاً ترتب على ذلك الآثار والثمار والعوائد الكبيرة التي تُجنى من هذا الذكر العظيم الذي هو من أحب الكلام إلى الله عز وجل

[ثالثاً : قوله " والصلاة نور " يشمل النور في القلب ونور الوجه ونور الهداية والنور يوم القيامة] .

الشرح..

لأنه قال "نور" وأطلق ولم يقيد ، والقاعدة أن المتعلق إذا حُذف يفيد العموم ؛ فقال :
"الصلاة نور"؛ فلم يقل مثلاً " في وجهه " أو " في قبره " أو " في قلبه " أو " في حشره " ؛
فيفيد العموم لذلك كله.

[قوله " الصدقة برهان " : أي دليلٌ على إيمان صاحبها وصدقه؛ وذلك أن النفوس تشح بالمال ، فمن وقى شح نفسه وتصدق كان علامة على إيمانه ، ولأن المنافق قد يصلي رياءً ، ولا تسمح نفسه بإخراج الصدقة لبخله وحرصه على المال] .

الشرح..

.. والله تعالى يقول {ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون} .

[خامساً : قوله "والصبر الضياء " أي الصبر على الطاعات ولو شقت على النفوس وعن المعاصي ولو مالت إليها النفوس وعلى أقدار الله المؤلمة فلا يجزع ولا يتسخط ، وحصول ذلك من المسلم يدل على قوة إيمانه ونور بصيرته ؛ ولهذا وصف الصبر بأنه ضياء].

الشرح..

قوله " الصبر ضياء " أي الصبر بأنواعه الثلاث - الصبر على الطاعات والصبر عن المعاصي والصبر على أقدار الله المؤلمة - وإذا اجتمع الصبر في العبد على الأنواع الثلاثة كان ضياءً له ودليل على قوة إيمانه ، الصبر خصلة وعمل قلبي يصاحب المسلم في كل حياته ، ومنزلة من منازل السائرين إلى المتقربين إلى الله يستصحبها المسلم في كل حياته ؛ فالصبر يُحتاج إليه في الطاعات كلها لتُفعل ، والصبر يُحتاج إليه في المعاصي لتُترك ، ويحتاج إليه عند الأقدار المؤلمة حتى لا يجزع العبد ولا

يتسخط ، يقول تعالى {ما أصاب من مصيبة إلا باذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه} قال بعض السلف : " هي المصيبة تصيب المسلم فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم " .

فالصبر خصلة وعمل يحتاج إليه المسلم وأن يستصحبه في حياته كلها ليؤدي الطاعات وليكف عن المعاصي ولئلا يجزع ويتسخط عندما يصاب بشيء الأقدار المؤلمة .

[سادساً: قوله " والقرآن حجة لك أو عليك " : أي أن القرآن إما أن حجة للإنسان إذا قام بما يوجب عليه وما هو مطلوب منها في القرآن من تصديق الأخبار وامتنال الأوامر واجتناب النواهي وتلاوته حق تلاوته ، وإما حجة عليه إذا أعرض عنه ولم يقم بما هو مطلوب منه ، ومثل هذا الحديث قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه " إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين "] .

الشرح...

القرآن إما حجة للإنسان أو حجة عليه ، هذا الحديث فيه إيقاظ للقلوب ، وإيقاظ لمن أكرمهم الله سبحانه وتعالى بمأدبة القرآن المباركة ، وجلسوا مع كتاب الله يقرؤونه ، وأمضوا فيه أوقاتاً تلاوة لكتاب الله عز وجل ؛ عليهم أن يحاسبوا أنفسهم دائماً في ضوء هذا الحديث - القرآن حجة لك أو عليك - فعليه أن يحاسب نفسه في ضوء هذا الحديث ؛ إن كان من أهل العمل به والتطبيق للمطلوب منه في القرآن ؛ فالقرآن حجة له ، وإن كان ليس كذلك ؛ بل مُعرض عن أحكام القرآن ، مُعرض عن أوامره ، مرتكب لما نُهي عنه في القرآن ؛ فالمقصد الذي أنزل القرآن من

أجله ليس موجوداً فيه ؛ فالقرآن أنزل ليعمل به ، إذا كان معرضاً ومتخلياً عن العمل بالقرآن الكريم كان القرآن حجة عله لا له .

فلو أخذ قارئ القرآن مثلاً ووقف يوماً يحاسب نفسه في هذا الباب وقال : كم في القرآن من آية لإقامة الصلاة والمحافظة عليها والوعيد على تركها والتهديد على التفريط فيها ؟ ثم نظر في حاله مع هذه الصلاة التي هي أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين ؛ هل هو يواظب عليها؟ هل هو من المحافظين ؟ هل يهتم لصلاته أكثر من اهتمامه لديناره ودرهمه أم الدينار والدرهم مقدمان عليها ؟ ما حاله مع هذه الصلاة ؟

إن كان فعلاً من المحافظين عليها المواظبين على أدائها وقلبه مهتم بها ومعلق بأدائها، كلما انقضت صلاة استقبال الأخرى ، وحرص على أدائها ؛ كان من أهل هذه الآيات الكثيرة في القرآن التي فيها الأمر بإقام الصلاة .

وإذا كان مضيقاً فما حظه من هذه الآيات ؟ إن كان حظه مجرد التلاوة لها والصوت الجميل ؛ فهذه الآيات حجة عليه لا له .

ينظر أيضاً في جانب الإخلاص في العمل لله جل وعلا ؛ كم في القرآن من آيات فيها الدعوة للإخلاص ؛ فإذا كانت نفسه تميل للمراعاة وتميل للسمعة وتميل للشهرة ؛ فأين حظه من آيات الإخلاص ؟ وهي كثيرة في كتاب الله جل وعلا .

وهكذا يحاسب نفسه ؛ فالقرآن حجة للإنسان الذي عمل بالقرآن وعمل بما طُلب منه أو حجة على من فرط في ذلك وضيع وأهمل .

[سابعاً : قوله " كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها " : معناه أن الناس يغدون ويسعون فينقسمون إلى قسمين : قسم يبيع نفسه على الله بفعل الطاعات واجتناب المعاصي ؛ فيعتقها بذلك من النار، ويبيعه عن إضلال الشيطان وإغوائه ، وقسم يوبقها بارتكاب الذنوب المعاصي وذلك بوقوعه في الشهوات المحرمة التي توصله إلى النار] .

الشرح..

معناه أن الناس كلهم يسعون وكلهم ماضون لأعمال لكن الأعمال التي هم ماضون فيها منقسمون فيها إلى قسمين : القسم الأول : الذي يعمل أعمالاً يكون بها نفسه على الله بفعل الأوامر وترك النواهي والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بما شرع ؛ وهذا فعل الإنسان الذي نفسه كريمة عليه وعزيزة عنده وغالية ؛ فيبيعه على الله جل وعلا بفعل الأوامر وترك النواهي .

القسم الآخر : ترخص نفسه عنده جداً فيبيعه والعياذ بالله على الشيطان ، أو يبيعه في دروب الضلال والضياع واللذات المحرمات التي يذوقها الإنسان في لحظة وتبقى من بعدها العواقب الأليمة والآثار المخزية ؛ يقول الشاعر :

تفنى اللذادة ممن نال صفوتها من الحرام ويبقى الخزي والعار

وتبقى عواقب سوء من مغبتها لا خير في لذة من بعدها النار

إذا كان الإنسان يبيع نفسه في سوق الهوى وفي سوق الخنى وفي سوق الفجور وفي سوق الضياع وفي سوق الضلال ؛ هذا نفسه رخصت عليه ؛ فباعها بأحقر وأخس ما يكون ، ودنسها ؛ ولهذا قال الله جل وعلا { قد أفلح من زكاهما وقد خاب من دساها } أي غمسها في الرذيلة ، وأدخلها في الضلال والباطل والضياع ؛ فهذا نفسه ليست بغالية عنده ؛ ولهذا باعها بأخس الأثمان وأحقر الأعمال . والذي تشرف نفسه عنده وتكون عزيزة ؛ فلا يرضى أن يبيعها إلا على الله جل وعلا بفعل ما أمر به جل وعلا وترك ما نهي عنه وبالمحافظة على أوامره سبحانه والمصارعة للخيرات ؛ ولهذا بعض أهل الفضل والنبل اشتهروا وعُرفوا بين الناس بامتلاء أوقاتهم بالأعمال الصالحة حتى يُذكر في بعض تراجم الأولين من أهل العلم والفضل أن بعضهم لو قيل له أن ملك الموت بالباب لقبض روحك ؛ ليس عنده زيادة عمل ؛ فكل وقتة مليء ، بينما لو قيل للآخر أن ملك الموت بالباب فيقول : ليته ينتظر ، يعطيني فرصة ، يوجد أشياء أريد أفعلها ، فرطت في أشياء ..

فأكثر ما يهلك الناس طولُ الأمل ؛ ولهذا يتمادى به التسويف والتفريط إلى أن يفاجئ بمفارقته للحياة ومغادرته للعالم على تضييعه وتفريطه ؛ ولهذا من لطيف ومفيد ما يُذكر أن أحد أئمة السلف أراد أن يعظ رجلاً مفراطاً ؛ أخذه إلى المقابر ، وأشار له إلى بعض القبور وقال له : لو كنت في مكان هؤلاء ماذا تتمنى ؟ قال أتمنى أن يعيدني الله إلى الدنيا ثانية وأن أعمل صالحاً غير الذي كنتُ أعمل ؛ قال له أنت الآن فيما تتمناه اعمل صالحاً . والكيس من عباد الله من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني .

[ثامناً : مما يستفاد من الحديث :

الأول : بيان فضل الطهور .

الثاني : بيان فضل التحميد والتسبيح .

الثالث : إثبات الميزان ووزن الأعمال .

الرابع : فضل الصلاة وأنها نورٌ في الدنيا والآخرة .

الخامس : فضل الصدقة وأنها علامة على إيمان صاحبها .

السادس : فضل الصبر وأنه ضياء للصابرين .

السابع : الحث على العناية بالقرآن تعلماً وتدبراً وعملاً ليكون حجة للإنسان .

الثامن : التحذير من الإخلال بما يجب نحو القرآن لئلا يكون حجة عليه .

التاسع : الحث على كل عمل صالح يعتق الإنسان نفسه به من خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

العاشر : التحذير من كل عمل سيء يجعل صاحبه من أولياء الشيطان ويفضي بصاحبه إلى النار

الشرح..

جميع هذه الفوائد المستنبطة والمستفادة من هذا الحديث تدلنا إلى أن هذا الحديث من أحاديث الفضائل - فضائل الأعمال - وهذا باب في السنة الصحيحة كفاية فيه وغنية ، والذي ينبغي على من اتجهت همته إلى وعظ الناس وترغيبهم في الفضائل أن يُعنى بما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ففيما صح عنه كفاية وغنية ، وأما الأشياء التي لم تصح ولم تثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم فالذي ينبغي على العبد أن يجتنبها وخاصة المكذوبات والموضوعات في هذا الباب وهي كثيرة جداً ، وجماعة من القصاص والوعاظ الأولين دخلوا مدخلاً قبيحاً وكذبوا أحاديث عديدة على النبي صلى الله عليه وسلم في باب الفضائل ، وربما كان قصدهم ترغيب الناس في الفضائل ؛ فيذكرون فضائل لأعمال بعضها أعمال من أصلها ثابتة وبعضها أعمال لا أصل لها ؛ ثم قالوا: نحن نكذب له ولا نكذب عليه ؛ أي أننا نكذب في أشياء نساعد فيها لبيان الدين !!

وهذا الكلام من لوازمه الطعن في بيانه عليه الصلاة والسلام ونصحه وذكره للترغيب والترهيب مع أننا نعتقد أنه عليه الصلاة والسلام بيّن الدين كله بما في ذلك جانب الترغيب والترهيب أتمّ بيان ، ويسع العبد في دعوته وترغيبه وترهيبه ما وسع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من الحق المبين والهدى الثابت عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

فمثل هذا الحديث وأمثاله من أحاديث فضائل الأعمال يعتني المسلم بحفظها ويعتني بنشرها وبيان معانيها للناس على جادة النبي صلى الله عليه وسلم القويمة وجادة صحابته الكرام ، وأما الأشياء

الضعيفة والواهية والموضوعة فالذي ينبغي على المسلم أن يكون منها على حذر وفيما صح
كفاية وعُنية .

سبحانك اللهم و بحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم صلّ وسلّم على عبدك
ورسولك نبينا محمد و آله وصحبه

..*